المسند لابن حنبل

بقلم
الأستاذ الشيخ محمد ابو زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق – جامعة القاهرة

١ – كتاب المسند موسوعة جامعة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أثر عنه من أفعال ، والسنن المأثورة عن أصحابه وفتاويهم وقد استغرق جمعه وتنقيحه حياة الإمام أحمد رضى الله عنه ، ولا بد أن نشير إلى جامعه قبل أن نتكلم فيه .

ولادة أحمد ونشأته وأسرته :

١ – كانت ولادة أحمد فى شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ ، ووفاته سنة ٢٤١ ، فعمر نحو سبع وسبعين سنة قضاها رضى الله عنه فى البر ، وجمع علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم أصحابه الكرام ، ونفع الناس بثمرات ما وصل إليه من فقه السنة المأثورة .

وقد كان من أسرة عربية ، فكان عربياً من جهة أبيه ومن جهة أمه ، إذ ينتميان إلى قبيلة شيبان ، وهى قبيلة ربعية عدنانية ، تلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جده العالى نزار .

وأسرته نالت مجداً فى الدولة الأموية والعباسية ، فجده كان والياً فى إحدى الولايات بخراسان ، وأبوه كان قائداً عربياً من قواد الجيش العربى العباسى ، قبل أن يتغلب العنصر الفارسى على العنصر العربى فى الجيش الإسلامى ، إذ لم يتم ذلك إلا سنة ١٩٨ ، وأبوه كان قائداً من قبل ذلك .

ومن هذا يتبين أن أسرته كانت تعيش بخراسان ، وكان لها مجد فيها ، ولكن أحمد لم يولد بخراسان ، وكانت ولادته ببغداد إذ ترك أبوه قيادته فى الجيش وعاد إلى العراق ، وفى عاصمة الحكم الإسلامى ولد أحمد .

والغلام الصغير لم يكد يرى نور الوجود ، حتى فقد أباه الشاب الذى لم يكن قد تجاوز الثلاثين ، ويذكر المؤرخون أن أباه قد مات ولم يبلغ سن الفهم والمعرفة ، حتى إنه يقول إنه لم ير أباه .

٢ – وقامت أمه على تربيته ، برعاية عمه ، وإذا كانت هذه الأسرة قد فقدت سلطانها ، فقد أرادت الأم الرءوم أن تستبدل لابنها بسلطان المادة والولاية سلطان العلم ، فوجهته إليه ، وكان له نزوع نحوه ، وسهل ذلك إقامته بمدينة بغداد ، معدن العلم الإسلامى ، وموئله ، إذ زخرت بأنواع المعارف ، والفنون الإسلامية ، فيها القراء ، والمحدثون ، والفقهاء ، والمتصوفة ، والفلاسفة والحكماء ، وعلماء اللغة ، وكبار الشعراء .

وابتدأ حياته الفكرية باستحفاظ القرآن الكريم ، ثم طلب الفقه ، فطلبه على الإمام أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، وقاضي الدولة العباسية إبان ذاك وبعد أن أخذ من الفقه أشطراً من أبي يوسف وغيره اتجه إلى الحديث ، وأراد أن يعرف مصدر الفقه قبل أن يوغل فيه ، ويذكر المؤرخون أن أول طلبه للحديث كان سنة ١٧٩ ، أي وهو في نحو الخامسة عشرة من عمره طلبه من المحدثين ببغداد ، حتى إذا أحس بأن المحدثين في عصره كانوا متفرقين بالأمصار ، اتجه إلى الرحلة ليتلقى العلم عنهم من أفواههم ، ولا يكتفي بالروايات المنقولة التي تنقل عنهم ، وابتدأ رحلاته في سنة ١٨٦[1] فرحل في هذا العام إلى البصرة ، وفي العام التالي رحل إلى الحجاز ، وفيها كان أول لقاء له بشيخه الشافعي رضي الله عنه ، ثم توالت رحلاته إلى البصرة ، حتى إنه يروى أنه رحل إليها خمس مرات ، ثم رحل إلى الكوفة ، وتوالت رحلاته إلى الحجاز ، فرحل إليه خمس مرات أولاها سنة ١٨٧ ، والثانية سنة ١٩١ ، ثم سنة ١٩٦ ثم سنة ١٩٧ ، ثم حج سنة ١٩٨ واستمر إلى سنة ١٩٩ ، وقد حج ثلاث مرات من الحج ماشياً ضل الطريق فيها مرة . ورحل إلى الكوفة ثم اليمن لطلب الحديث من عبد الرازق بن همام المحدث المشهور وكان يمكنه أن يأخذ عنه وهو بالحجاز ، إذ لقيه بالحجاز عند ما كان على نية الذهاب إليه في اليمن للقائه ، فلم يأخذ عنه ، وآثر أن يركب متن الصعاب للذهاب إليه في اليمن ، لاعتقاده أنه كلما عظمت المشقة في الطلب ، اشتد الحرص على ما أخذ ، ولأن النية الحسنة يجب أن تنفذ ، ولأن الطلب من الشيخ في وقت اطمئنانه وقراره ، خير من طلب علمه في سفره وترحاله ، ولذا سافر إليه في صنعاء ، وأصابه الجهد الشديد ، فقد نفدت نفقاته ، وأراد من معه في رفقة الطريق أن يمدوا له يد المعونة فردها ، وكان يؤجر نفسه للجمالين بقليل من المال ، وكان يتولى بعض أعمال النسيج لينفق منه ، وفي صحبته بعض الأغنياء الذين حاولوا أن يقرضوه ، فرد عليهم أموالهم ، لأنه لا يريد أن يكون لأحد من العباد عليه فضل إلا فضل العلم والتلقي .

مع المحبرة إلى المقبرة :

٣ – طاف أحمد في الأقاليم الإسلامية طالباً للحديث لا يستكثر الكثير من التعب ، يحمل حقائب كتبه على ظهره ، وقد رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته ، وهو يعلم كثرة ما رواه من الحديث ، وحفظه وكتبه ، فقال له : « مرة إلى الكوفة ، ومرة إلى البصرة ! ! إلى متى ؟ » فقال أحمد رضي الله عنه : « مع المحبرة إلى المقبرة » وهذه المحبرة التي يحملها كان يدون بها ما يسمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العصر كان عصر جمع وتدوين ، ففيه جمع الفقه ودون ، وجمعت اللغة وأشعار العرب ونثرهم ، فلا بد إذن أن يجمع الحديث ويدون ، وبذلك سعى أحمد في جمعه وتدوينه ، ولم يجد سبيلا يجب أن يسلكه لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سلكه ، فكان يعمل أولا على سماع الحديث من راويه ، ثم يدونه ، ويحفظه في صدره ، مع حفظه في القرطاس بالتدوين ولما بلغ ما بلغ من حفظ الحديث وتدوينه كان لا يعتمد على حفظه فقط ، عند ما يتلقى عنه غيره ، ليكون متثبتاً في كل ما يؤخذ عنه ، ويروى أنه سأله بعض أهل مرو عن حديث ، فأمر ابنه عبد الله أن يحضر له كتاب الفوائد ، ليبحث عن الحديث ، ولكنه لم يجده ، فقام بنفسه وأحضر الكتاب ، وأخذ يبحث عن الحديث[1].

---

(١) راجع في ذلك مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٨٥ .

(١) المناقب لابن الجوزي ص ١٩٠ .

أبو الفقه :

٤ – كان أحمد فى جمعه للآثار ، يجمع الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجمع أعمال الرسول وتقريراته ، أى ما يقر أصحابه عليه ويجمع لأجل هذا أقوال بعض التابعين ، وفتاويهم ، إذا كانوا قد بلغوا منزلة من الفتوى يكونون بها حجة يؤخذ عنهم ، لقد ابتدأ حياته طالباً للفقه ، ثم كان مع تفرغه للحديث غير منقطع عن الفقه ، بل كان يقبس من فقهاء عصره ما يرى فيه علماً بما لم يكن يعلم ، كما أخذ عن الشافعى عند التقائه به بمكة سنة ١٨٧ ، ثم عند ملازمته له فى الفترة التى قضاها هذا ببغداد وإذا كان قد أخذ عن الشافعى منهاجه الذى سنه ليلتزمه المجتهد فى طلب أحكام الفروع من الكتاب والسنة ، وهو ما سمى علم الأصول ، فقد كان هو عنده المادة الفقهية التى يستطيع أن يغوص فيها ملتزماً المنهاج الذى سنه الشافعى مضيفاً إليه ما انتهى هو فى دراساته إليه ، وإن هذه المادة هى ما جمعه من أحاديث وسنن وفتاوى ، فقد كانت معيناً آمده بفقه أثرى قويم ، وقد استنبط بالبناء عليه ، وخرجه تخريجاً حسناً ، وبهذا التقى عنده علم الحديث والآثار مع الفقه ، بل إنه وهو ينقل السنة كان ينقل أعمق الفقه ومصدره ، ولذا جاء فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين ، لأنه استقى منهم ، حتى لقد ادعى ابن جرير الطبرى أنه كان محدثاً ولم يكن فقيهاً ، ولم يعده ابن قتيبة فى ضمن الفقهاء ، بل عده فى ضمن المحدثين ، وذلك لما سبق من تشابه فقهه مع فقه أهل السنة والآثار ، وقربه منهم ، ولاحترامه آراء الصحابة ، حتى إنه كان لا يرجح بعضها على بعض ، فإذا روى رأيان لاثنين من الصحابة أو ثلاثة اعتبر آراءهم جميعاً أوجهاً فى مذهبه ، أو آراء فيه ، إلا إذا أيد أحد الآراء بحديث للنبى أو عمل له ، فإنه يختاره دون سواه ، لأن رأى الصحابى مهما يكن مقامه مؤخر عن قول النبى صلى الله عليه وسلم .

علم أحمد بالفارسية :

٥ – انتقلت أسرة أحمد من مرو ، وأمه كانت حاملا به كما روينا ، وولد ببغداد كما ذكرنا من قبل ، ويظهر أن إقامة أسرته الطويلة بخراسان واتصال أعمال عمه بها ، إذ كان كاتب الخلافة العباسية هناك – جعل اللغة الفارسية معروفة فى هذه الأسرة ، ولذلك ثبت أن أحمد كان يعرف الفارسية ويتحدث بها ، وقد روى ذلك الذهبى فى تاريخه ، فيروى أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته ، فكان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها وربما استعجم القول على الضيف ، فيكلمه أحمد بالفارسية .

محنة القول بخلق القرآن :

٦ – نزلت بأحمد محنة شديدة ، استمرت طول خلافة المعتصم والواثق ، وتلك المحنة كانت بسبب ما أثاره المعتزلة من ضرورة القول بخلق القرآن ، وتكفير من لم يقل بذلك ، واتباع المأمون لهم ، فأنزل وزير المأمون بالفقهاء والمحدثين محنة شديدة ، منع القضاة من مناصبهم إلا إذا قالوا ذلك ومنع الفقهاء من أن يفتوا والمحدثين من أن يحدثوا إلا إذا قالوا إن القرآن مخلوق ، بل إن الشهود فى مجالس القضاء ما كانت لتسمع شهادتهم إلا إذا قالوا ذلك القول ، ولم يكتف وزير المأمون بذلك ، بل أحضر الفقهاء والمحدثين الذين رضوا بالحرمان من الفتوى والتحديث ، ولم يسوغوا لأنفسهم الخوض فى ذلك ، لأنهم رأوا أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يخوضوا فيه ، وما كان لهم أن يتكلموا فى أمر لم يتكلم فيه السلف الصالح ، أحضرهم وهددهم بالعذاب الشديد ، فخضعوا جميعاً إلا ثلاثة أجدهم أحمد بن حنبل ، فسيقوا مكبلين بالحديد سنة

٢١٨ من بغداد إلى طرسوس ، حيث كان المأمون ، وفى الطريق ضعف أحدهم ففكت قيوده ، واستشهد ثانيهم فى أثناء السير ، وبقى أحمد ، والله معه ، ورضى بأن يسام العذاب ، ولا ينطق بأمر لم يخض فيه السلف الصالح .

وفى أثناء الطريق مات المأمون ، ولكنه ترك لأخيه المعتصم الذى جاء بعده ، وصية يشدد فيها بالأخذ بمنهاجه فى القول بخلق القرآن وإنزال العقاب بمن لم يقل ذلك القول من الفقهاء والمحدثين ، وكان المعتصم رجلا عسكرياً ، فنفذ إرادة أخيه أعنف تنفيذ ، وما ونى فى ذلك ، وبذلك امتدت المحنة بأحمد ، واشتدت ، وأخذت أقسى أدوارها ، فزج به فى غيابات السجون وأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى ، ولم يترك فى كل مرة إلا بعد أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف ، فلا يحس ، واستمر فى محبسه مع هذا العذاب ، نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، فلما استيئسوا منه أطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته ، وقد أثخنته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح ، والإلقاء فى غيابات السجن ، حتى إنه من شدة ما نزل به كان لا يقوى على السير ، وقد انقطع عن الدرس من غير منع إلى أن التأمت جراحه واستطاع أن يخرج إلى المسجد ، وعندئذ عاد إلى مجلس درسه يحدث بأحاديث رسول الله ، ويفتى الناس على منهاج السنة ، وازداد بذلك تقديراً ، فأقبلوا على سماع درسه ، واقتدى به فى صبره كثيرون من الفقهاء والمحدثين بعد أن فزعوا أولا ، فقالوا مقالة المأمون .

استمر أحمد قائماً بواجبه فى الدرس والرواية بقية مدة المعتصم ، فلما جاء الواثق من بعده ، ووزيره أحمد ابن أبى دؤاد الذى حرض المأمون أولا ، وكان ملازماً للمعتصم ثانياً ، حرض الواثق على إعادة المحنة بأحمد ، ومن اقتدى به ، فأعادها ، ولكنه لم يأمر بالضرب بالسوط كما فعل المعتصم إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس ، ومنع فكرة القول بخلق القرآن من أن تذيع وتنشر لأنها كانت محوطة بالأذى ، ولا يميت الأفكار سوى إحاطتها بالأذى ، إذ سيصحبها سخط العامة ، ولذلك اختار للمحنة الجديدة صورة أخرى ، وهى أن يمنعه الاجتماع بالناس والتحديث والفتوى ، وقال الواثق لأحمد : « لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه » .

واستمر أحمد على هذا الحبس الفكرى إلى أن جاء المتوكل ، وكان يكره المعتزلة ، فطرد أحمد بن أبى دؤاد ، ورفع المحنة عن أحمد وبقية من نزل بهم هذا البلاء وقرب أحمد إليه .

رفضه لعطاء الخلفاء :

٧ — كان أحمد محدود الموارد ، فما كان ينفق إلا عن غلة حوانيت ودار تركها لها أبوه ، وكانت غلة ضئيلة تكفيه المعيشة ، بأدنى درجاتها ، فكان يرضى بها ، وعرض عليه المتوكل عطاءه مرات ، فكان يرده ، وقد سئل عن ذلك أهو حرام ، فقال ليس بحرام ، ولكنى أتركه تنزهاً ، فكان رضى الله عنه نزه النفس ، لا يأخذ من أحد مالا ، لا قرضاً ، ولا هبة .

ولقد آتى الله تعالى أحمد مع هذه النزاهة صفة الزهد ، ولكن ذلك لم يمنعه طلب الحلال وتناول الطيبات من الحياة إن استقام طريقها ولذلك كان يرى الزهد طلب الحلال ، وتهذيب القلوب بالاقتصار عليه

٨ — وقد أوتى رحمه الله صبراً وجلداً وقوة احتمال ودأب ، مع إخلاص أنار قلبه وبصيرته ، وأبعده عن الرياء وكل مظاهره ، حتى كان يتمنى أن يعيش فى شعب من شعاب مكة لا يحس به أحد ، وأوتى حافظة واعية ، وبديهة حاضرة ، ورفقاً ولطف

عشرة ، واستقامة منهاج ، وأوتى هيبة نفسية تجعل من يلقاه يخشاه من غير رهبة ، ويحبه من غير ابتذال . وكان قوياً فى ذات نفسه ، وأبلغ ما كانت قوته فى استيلائه على أهوائه ، وقمعه لشهوات النفس ، وبذلك صار ربانياً مهدياً .

المسند

٩ ــ المسند هو مجموعة الأحاديث التى رواها أحمد رضى الله عنه ، وضرب فى مناكب الأرض ساعياً جاهداً فى جمعها ، وهو فى الحق الخلاصة لما تلقاه من الأحاديث التى دونها بأسنادها ، ولذلك يبتدئ جمعه من وقت أن ابتدأ أحمد يتلقى الحديث ويرويه ، وقد ابتدأ يتلقى الحديث ويرويه ويدونه ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولذلك قرر علماء السنة أنه ابتدأ فى جمع المسند سنة ١٨٠ هـ ، وهذه هى السنة التالية للسنة التى ابتدأ أحمد فيها طلب الحديث كما أشرنا فى تاريخ حياته ، وقد روى عن أحمد أنه ابتدأه فى هذه السنة فقد جاء فى كتابه المنهاج ما نصه . « كان ابتداؤه سنة ١٨٠ ثمانين ومائة »[١].

وإن أحمد كان يكره كتابة العلوم الإسلامية ما عدا الحديث ، حتى لا يكون شىء من المصادر الإسلامية مدوناً غير الكتاب والسنة ، فلا يدون فقه أى مذهب لكيلا يستغنى الناس به عن الرجوع إلى مصدر الفقه الأول ، وهو نصوص كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وروى أن عبدالله بن أحمد سأل أباه قائلا : لم كرهت وضع الكتب وقد عملت المسند ؟ فقال رضى الله عنه مجيباً ابنه : « عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس رجعوا إليه » .

١٠ ــ كان هم أحمد منذ اتجه إلى طلب الحديث أن يضع نصب عينيه جمع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثقات الذين عاصروه ، ومن كانوا على كثب منه التقى بهم ، ومن بعدوا عنه سعى إليهم جاهداً مهما تكن المشقة شديدة ، والشقة بعيدة ، واستمر فى جمع مسنده هذا مدى حياته ، ولم تكن همته متجهة إلى ترتيب ما يجمع وتبويبه ، بل كانت متجهة إلى الجمع والتدوين ، وقد استمر فى الجمع ، وتنقيح ما يجمع ، وتحقيق رواياته والموازنة فيها من حيث قوة الرواة وضعفهم ، فلم يكن تنقيحه ترتيباً ، ولكن كان تحقيقاً فيما رواه ولذلك استمرت المدونات مجموعات متفرقة على نحو المسودات ، حتى أحس بدنو الأجل ، فجمع بنيه وخاصته ، وأملى عليهم ما كتب ، وأسمعهم إياه مجموعاً ، وإن لم يكن مرتباً ، فكان حرصه فى هذه الحال على ألا يضيع شىء قط مما جمعه ، وقال فى ذلك شمس الدين الجزرى ما نصه : « إن الإمام أحمد شرع فى جمع المسند ، فكتبه فى أوراق ، وفرقه فى أجزاء متفرقة على نحو ما تكون المسودة ، ثم جاء حلول المنية ، فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته ، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه ، فبقى على حاله ، ثم إن ابنه عبدالله ألحق به ما يشاكله وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله »[١].

وإن هذا الكلام يدل فى ظاهره على أنه لم يسمع المسند مجتمعاً متكاملا إلا أولاده وأهل بيته وخاصته ، وهو فى ظاهره ربما يخالف ما اشتهر من أنه كان يملى الحديث من الكتب التى جمعها ، على كل من يسأله عن حديث ، ولكن عند التحقيق لا توجد مخالفة لأنه فى مدارسته لطلاب الحديث كان يقرأ عليهم من الكتب المتفرقة غير المرتبة التى لا يعرف مواضعها غيره ، ولم يكن بهذا يسمعهم كتاباً كاملا مشتملا على كل ما جمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يلقى ما يسد حاجة سائله ، أو يرى أن من

(١) راجع فى هذا ص ٢١ من الجزء الأول من طبقات الحنابلة النسخة المخطوطة بدار الكتب .

(١) راجع فى هذا مقدمة المسند طبع المعارف بتحقيق المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد شاكر .

الواجب عليه إعلانه للعامة . . . ولما أحس بدنو الأجل ألقى على خاصته كل ما جمع ، حتى لا يضيع ما سمعه وليكون ما تلقوه إماماً للناس .

وإن الكلام الذى نقلناه عن الجزرى يدل على أمر آخر ،وهو أن المسند الذى روى وتناقلته الرواة ، ليس كله برواية أحمد ، بل أضيفت إليه زيادات تشاكله أو تماثله ، ضمها إليه ابنه عبدالله من مسموعاته ، وإن هذا معناه واضح ، وهو أن المسند ليس كله لأحمد . وقد أجيب عن ذلك بأن ما ضمه عبدالله بن أحمد من مسموعاته ، ليس معناه أنه من مسموعات أحد غير أبيه ، بل من مسموعاته عن أبيه ، ولكنه لم يكن مما تلاه عليهم أحمد عند إملائه للمسند فى آخر حياته ، ويكون بهذا ما رواه أحمد عن أبيه قسمين : أحدهما كان باملاء أبيه على أولاده وأهل بيته ، وثانيهما : لم يكن بإملاء أحمد فى هذه الفترة الضيقة بل كان بسماع عبدالله من أبيه خاصة ، وبهذا كان المجموع كله هو المسند برواية أحمد . وعلى أى حال كان الجواب ، فإن بعض العلماء يقول إن عبدالله قد زاد روايات معتمدة عنده ، ولم تكن عن طريق أبيه ، ولكنها تشبه ما روى أبوه فى معناه ، وقد كان هو ثقة حافظاً تلقى الحديث عن أبيه وعن غيره ، فلا مانع من قبول هذه الزيادة .

راوى المسند :

١١ – وراوى المسند المنقول المتداول اليوم بين طلاب الحديث وقارئيه هو عبدالله بن أحمد ، ومن الواجب أن نعرف به ، فإن ذلك من التعريف بالمسند الذى رواه ونقله لى الأجيال ، إذ أن الثقة بالناقل اطمئنان إلى المنقول .

عبدالله بن أحمد ولد سنة ٢١٣ ، وتوفى سنة ٢٦٦ ، وكان لأحمد عناية خاصة بتربية أولاده ، وقد نمى عنايتهم بالحديث ، ورأى فى عبدالله من بين أولاده شدة عناية به فنماها ، وشجعه على الاستمرار فيها ، وكان يطلب الحديث من أبيه ومن غيره ويقول كنت أعرض على أبى الحديث ، فأرى فى وجهه التغير ، ويقول كأنك تطلب ما لم أسمعه » وتغير وجه أبيه هو تغير المفاجأة وكأنما يعرضه على أبيه ليدرس أبوه روايته ، ويجيزه فكأنه رواه عنه ، وقد رضى أحمد من ابنه ذلك المنهاج ، فكان يقول ابنى عبدالله محظوظ من علم الحديث لا يكاد يذاكرنى إلا بما لا أحفظ »[1]. وبلغ من منزلته عند أبيه أن أباه كان يروى عنه مع صغر سنه ومقام أبيه ، فلا ريب أن أباه كان يتقبل ما يرويه ، فإذا كان قد سمع من غير أبيه فى حياته ، فبرضا منه ، بل بإرشاد وتوجيه ، وتعريفه بفضل رجال عصره الذين يجوز أن يأخذ عنهم ، ولذلك قال ابن عدى « نبُل عبدالله بأبيه وله فى نفسه محل من العلم ، أحيا علم أبيه بمسنده الذى قرأه أبوه عليه خصوصاً ، ولم يكتب عن أحد إلا من أمره أبوه أن يكتب عنه » وقد قرر العلماء أن عبدالله كان أروى الناس عن أبيه ، وجاء فى طبقات أبى يعلى « قرأت كتاب أبى الحسين بن المنادى وذكر عبدالله وصالحا (ولدى أحمد) فقال كان صالح قليل الكتابة عن أبيه ، أما عبدالله فلم يكن فى الدنيا أحد أروى عن أبيه رحمه الله منه ، سمع المسند ، وهو ثلاثون ألفاً ، والتفسير ،وهو مائة وعشرون ألفاً ، سمع منها ثمانين ، وسمع الناسخ والمنسوخ والتاريخ وحديث شعبه ، والمقدم والمؤخر فى كتاب الله ، وجوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير ، وغير ذلك من المصنفات وما زلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال وعليل الأحاديث والمواظبة على طلب الحديث ، ويذكرون عن أسلافهم الإقرار له بذلك »[2]

---

(١) راجع مقدمة المسند طبع المعارف ص ٣٨ .

(٢) طبقات الحنابلة المختصرة ص ١٣٢ ، ١٣٣ طبع دمشق .

وبهذا النقل يتبين أن العلماء كانوا يخصون عبدالله بالثناء ، لفضل أبيه وتقديره له ، وبعد همته فى طلب الحديث ، حتى لقد كان يتبرم من كثرة الثناء .

وقد روى المسند عن عبدالله أحد تلاميذه ، وهو القطيعى ، ويدعى ابن تيمية أنه زاد فيما رواه عن عبدالله ، وفى زيادته أحاديث ضعيفة .

ترتيب المسند :

١٢ — روى عبدالله مسند أبيه ، ونشر علمه بين الناس ، وهو علم السنة ، ثم تسلسلت الرواية عنه بالسماع راوياً عن راو ، وكانوا جميعاً ثقات أثباتاً ، حتى حفظته الأجيال ، واستقر فيها ذخيرة محفوظة من السنة ، استحفظ عليها العلماء وتلقوها بالقبول .

ويظهر من أخبار المسند أن عبدالله هو الذى رتب المسند بالوضع الذى نراه الآن ، وحاول من بعده محدثون وحفاظ أن يغيروا ذلك الترتيب ، ويجعلوه مرتباً على نسق كتب السنة الصحاح المشهورة ، كالبخارى ومسلم وسنن أبى داوود فانها مرتبة على حسب الموضوعات ، بحيث يرجع إلى الأحاديث المروية فى كل موضوع ، وبذلك تكون الاستفادة سهلة .

أما ترتيب المسند كما رتبه عبدالله ، فهو أن يجمع أحاديث كل صحابى فى مكان واحد من غير نظر إلى الموضوع ، فيجمع كل ما روى عن أبى بكر ، ويسمى مسند أبى بكر ، وكل ما روى عن عمر ويسمى مسند عمر ، وهكذا بقية الراشدين ، والفقهاء من الصحابة كزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وغيرهم . وإن ذلك يجعل الرجوع إليه لمن يريد أحاديث موضوع معين يدرسه ، ويستنبط أمراً منها غير سهل . ويقول الذهبى فى ذلك : « لو أنه حرر ترتيب المسند وقرب وهذب لأتى بأسنى المقاصد ، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه ، ويبوبه ، ويتكلم عن رجاله ، وترتيب هيئته ووضعه ، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى ، إن شاء الله تعالى ، وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه » .

١٣ — وهكذا نرى عبدالله قد سار فى ترتيب المسند سيراً وجده المحدثون لا يسهل المراجعة ، ويخالف فى نهجه ما سارت عليه كتب الحديث من قبله ومن بعده ، فالموطأ من قبله مرتب على حسب الموضوعات ، وكذلك الصحاح من بعده ، وبذلك كان يسهل الرجوع إليها ، والانتفاع بها ، أما ترتيب عبدالله للمسند ، فكان يأتى بكل ما روى عن الصحابى ، كما أشرنا من قبل ، فإذا كان مرسلا لم يذكر فيه اسم الصحابى ، فإنه يذكر التابعى ، ويقول مثلا مسند نافع مولى عبدالله بن عمر ، أو مسند سعيد بن المسيب ، أو مسند شهاب . . . الخ .

وإن ذلك المنهاج ، وإن كان يصعب فيه الرجوع لطلاب دراسة موضوع معين ، فإنه يفيد فى ناحية أخرى ، فإن من يريد معرفة فقه صحابى يستطيع أن يرجع إلى مسنده ، فمن أراد أن يعرف فقه عمر مثلا ، فإنه سيجد فى مسند عمر رضى الله عنه ، مروياته ويجد فتاويه وأقضيته ، وبذلك يستطيع أن يتعرف إلى حد كبير فقه عمر بن الخطاب ، ويستنبط المقاييس التى وضعها رضى الله عنه ، فى معرفة الأحكام الفقهية بما كان يأخذ فيه بالرأى ، إن لم يكن بين يديه حديث يعتمد عليه .

ولم يسلك فى ترتيب الصحابة ترتيب الحروف ، بل ابتدأ بالأفضل فالأفضل من الصحابة ، فابتدأ بالعشرة المبشرين بالجنة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن مالك ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ، وأبى عبيدة وغيرهم ثم من يليهم وهكذا ، حتى إذا وصل إلى التابعين رتبهم هكذا . . . .

وقد حاول بعض الحفاظ تقريب ترتيبه ، بحيث يصير قريباً ، وقد قال فى ذلك الجزرى « وأما ترتيب هذا المسند فقد أقام الله تعالى لترتيبه شيخنا خاتمة الحفاظ الإمام الورع أبا بكر محمد بن عبدالله بن المحب الصامت رحمه الله تعالى ، فرتبه على معجم الصحابة ، ورتب الرواة كذلك ، وتعب فيه كثيراً ، ثم إن شيخنا الإمام مؤرخ الإسلام ، وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن كثير رحمه الله أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه ، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة ، ومعجم الطبرانى الكبير ، ومسند البزار ، ومسند أبى يعلى الموصلى ، وأجهد نفسه كثيراً ، وتعب فيه تعبا عظيما ، وأكمله إلا بعض مسند أبى هريرة فإنه مات قبل أن يكمله ، فإنه عوجل بكف بصره ، وقال لى رحمه الله تعالى ، ما زلت أكتب فيه إلى الليل ، حتى ذهب بصرى معه ، ولعل الله يقيض من يكمله » .

ومن هذا الكلام تبين أن الحفاظ من بعد أحمد حاولوا أن يقربوا ترتيبه من غير أن يغيروه ، ومنهم من حاول أن يجعله مجموعة كاملة للأحاديث كلها ، فأضاف إليه ما فى الصحاح والسنن ، غير مخالف ترتيب الإمام أحمد ، بل يضيف إلى مسند كل صحابى ما روى عنه فى الصحاح والسنن ، ولم يشتمل عليه مسند الإمام ، وبذلك يكون معروفاً كل ما روى عن كل صحابى ، ولا شك أن ذلك عمل جليل ، إذ تكون السنة كلها فى ديوان واحد ، وإن ذلك يكون عملا كاملا لو رتب المسند حسب الموضوعات ، وعلى أى حال فإن عمل الحافظ بن كثير لم يكمل ، إذ كف بصر ذلك العالم المستنير القلب قبل أن يتم عمله ، وتركه لمسند أبى هريرة تركه لأكثر الصحابة رواية ونقلا.

وقد يسأل سائل لماذا اتجه ابن كثير إلى مسند أحمد ، ليكمله دون بقية الصحاح والسنن ، والجواب عن ذلك أن المسند أكبر مجموعة فى كتب السنن ، فهى أكثرها جمعاً ، والمعقول أن يكمل الأكبر ، ولا يكمل الأصغر .

الروايات فى المسند :

١٤ – (أ) أراد أحمد أن يكون كتابه جامعاً لكل السنة التى كان يرويها الثقات فى عصره ، والثقات عند أحمد هم الذين لم يعرف عنهم أنهم يتعمدون الكذب ، فكان يروى عن أهل التقوى ، وإن عرف عنهم أن ضبطهم لم يكن كاملا ولكن يقدم عليهم أحاديث الضابطين إذا عارضتها ، ويقبلها إذا لم يكن فى الموضوع سواها ، ويضعها فى مسنده وقد قال فى تحقيق ذلك ابن تيمية « قد يكون الرجل عندهم ضعيفاً لكثرة الغلط فى حديثه ، ويكون حديثه الغالب عليه الصحة فيروون عنه لأجل الاعتبار والاعتضاد ، فإن تعدد الطرق وكثرتها يقوى بعضها بعضاً ، حتى يحصل العلم بها . . وهذا مثل عبدالله بن لهيبة ، فإنه كان من أكابر علماء المسلمين ، وكان قاضياً بمصر ، كثير الحديث ، ولكن احترقت كتبه ، فصار يحدث من حفظه ، فوقع فى غلط كثير ، مع أن الغالب على حديثه الصحة . قال أحمد بن حنبل : « قد أكتب حديث الرجل للاعتبار به ، مثل ابن لهيبة » .

فليس معنى قبول رواية التقى غير الضابط ضبطاً كاملا أنه يقبله حجة كما أشرنا ، بل إنه يروى حديثه ويدرسه ويفحصه وينقده بما عنده من أحاديث عن الضابطين ، فهو لا يرفض حديث من عرف بالتقوى لاتهام ضبطه ، ولكن يقبله ويكون حجة يجب العمل به ما دام لا معارض له ، ويثبته فى مسنده فى هذه الحالة .

(ب) وأحمد يشترط اتصال السند لكى يكون الحديث صحيحاً ، فأحمد لا يقبل الحديث المرسل ، والمرسل عنده هو الذى انقطع سنده عند التابعى ، أو انقطع سنده فى أى جزء من سلسلة السند ، ويعد